

وأوقنى في إحدى الشكنات المسكوية، وهناك لم أجد ما ألو به ، ولم يكن لدى من حسن حظي ما يشغل بالي من الشؤون والأعمال ، فكنت أفضى سحابة نهاري ، منزويًا في غرفتي ، حيث وجدت المجال الكافي من الزمن لأستعرض أفكارى وأخلو بها

أفتنزل الأعمال المكونة من جهود كثيرة متباينة

كان في طليمة تلك الأفكار ما لاحظته من أن الأعمال المكونة من أجزاء وأقسام كثيرة ، إذا اشتغلت فيها عدة أيام ، أصبحت وليس فيها من الروعة والابداع ما في أشباهها من الأعمال الأخرى التي لم تمتد إليها سوى يد واحدة : فالبناء الذي أشرف عليه وأجزه مهندس واحد أكثر جلالاً ونظاماً من سواء من الأبنية التي عمل فيها الكثيرون ، والتي رسمت صمماً ، وبنى على أسسها الهرمة أبنية لم تكن معدة لها .

وكذلك المدن القديمة التي أصبحت من الزمن مدناً كبيرة ، بمد أن كانت قرى وضياعاً ، فهي عادة فوضى في بنائها ، إذا قيست بتلك المدن الحديثة التي وضع تصميمها مهندس واحد قبل البشارة في بنائها . ونحن لو نظرنا إلى أبنية تلك المدينة القديمة لوجدنا أن فيها ما لو أخذناه على حدة لما كان يقل فناً وروعة عن أبنية المدن الحديثة ، ولكن نظرة واحدة تظهر لنا ما هي عليه من النظام والوضع : فهنا بناية كبيرة ، وإلى جانبها أخرى صغيرة ، وكلها تتحكم بالشوارع والطرق ، فتردها مترجحة : عريضة هنا ، ضيقة هناك .

وكذلك الشعوب التوحشة سابقاً ، تلك للشعوب التي لم تحضر لإشيتاً فشيئاً مع مرور الزمن ؟ وبقدر ما كانت تدفعها إلى ذلك مغارة الخمصومة والنزاع للحياة فقد رأيت أن ليس بإمكانها أن تضاهي بنظامها تلك الأمم الأخرى التي عرفت الحضارة منذ أقدم المصور ، فاجتمعت كلمها وأجمت على اتباع دستور واحد يضمه لها مشرع حكيم .

وكان في حكم الثابت لدى أن حكومة الدين الحق ، هي مطلقاً وبدون منازع ، خير الحكومات نظاماً ، لأنها من صنع الله تعالى وحده . ولم لا تقصر كلامنا على الأمور البشرية ؟ فأنا أعتقد أن مدينة اسبرطة إذا كانت قد ازدهرت قديماً فليس

## الطريقة العلمية

أو القواعد الأربع للبحث والتفكير<sup>(١)</sup>

للفيلسوف الفرنسي الكبير رينيه ديكارت

بقلم السيد أحمد محمد عيتاني

« رينيه ديكارت أشهر من أن يعرف ، فهو أبو الفلسفة الحديثة ، وواضع أسسها ، وباني كلياتها . عاش في القرن السابع عشر ، وألم بجميع فروع الفلسفة ، وترك لنا مؤلفات عديدة فيها ، كلها ذات قيمة فذة ، لا احتوت عليه من الحقائق العلمية ، ولللاحظات الدقيقة ، والنظريات والآراء التي أحدثت هزة عنيفة في عالم العلم والفلسفة ، فتبعت بحري بحوثها ، وحثتها على الاتجاه في اتجاه جديد كان نتيجة لها . من بين هذه المؤلفات التي وضعها ديكارت ، رسالة صغيرة ، بطلنا فيها موجز تاريخ حياته العلمية ، وعرض الظروف والناسبات التي ساعدته في الوصول إلى طريقته العلمية الخاصة ، التي بنى عليها بحوثه العلمية والفلسفية ، وقد أسمى هذه الرسالة «رسالة الطريقة أو القاعدة» ووضعها باللغة الفرنسية ، فكانت أول جهود فلسفي كتب بهذه اللغة ، وكان في ذلك خروج على عادة الفلاسفة والملاء الذين ألفوا أن يكتبوا أبحاثهم ويدرسوها باللغة اللاتينية ، ولهذا كان أسلوب المؤلف في رسالته أسلوباً جامداً متعباً غامضاً في بعض المواضع ، طويل الجمل ، كثير اللف والصوران ، يصعب فهمه لأول وهلة ، ولكن هذا لم يضع من قيمة الرسالة ، ولم يمنحها من أن تكون من أجل مؤلفات هذا الفيلسوف الكبير خطراً وأبدياً أثراً ، لما اشتغلت عليه من القواعد العلمية ، والنظريات الصائبة . وفيما على فصل من فصولها ، يصور لنا الظروف والناسبات التي أحيط بها المؤلف ليل وضعه قواعد الأربع التي صاغ فيها طريقته العلمية ، واتبعها في قيادة عقله للبحث عن الحقيقة والعلم الصحيح »

« أحمد عيتاني »

كذت يومذاك في ألمانيا<sup>(٢)</sup> . وقد دعيت إليها مناسبة الحرب التي لم تكن قد انتهت فيها بعد<sup>(٣)</sup> ؛ وانفق أتي بيننا كنت عائداً من حفلة تتويج الامبراطور<sup>(٤)</sup> لألحق بالجيش ، أهدكني الشتاء ،

(١) مما قريب تظهر الترجمة الكاملة لهذه الرسالة ، مصدره بحث مستفيض عن حياة ديكارت ومؤلفاته العلمية والفلسفية ، وموجز آرائه ونظرياته المختلفة ، في كتاب اسمه « ديكارت وقواعد العلمية »

(٢) انخرط ديكارت في سلاح الجيش الهولندي في سنة ١٦١٧ — ١٦١٩ واشترك معه في حروب كثيرة ، مدفوعاً إلى ذلك بحب الاطلاع على مختلف نواحي الحياة والالام بسائر وجوهها .

(٣) يشير إلى الحرب التي حدثت في بافاريا ، إحدى للقاطعات الألمانية ، في نوفمبر ١٦١٩ .

(٤) هو فرديناند الثاني ملك بوهيميا وهنغاريا ، وقد توج امبراطوراً في فرانكفورت في ٢٨ يونيو ١٦١٩

ازدهارها عائداً إلى أن كل قانون من قوانينها كان صالحاً في ذاته، فقلد كان في قوانينها شيء كثير مما هو غريب ومخالف للحق القديم، وإنما ازدهارها عائداً إلى أنها اتبعت تشريعاً واحداً، وضعه شخص واحد، كان يرى في مجلته إلى غاية واحدة.

ورأيت أيضاً أن ما تشتمل عليه الكتب والؤلفات من علوم ونظريات، إنما تكون من آراء كثير من الأشخاص المختلفين، شيئاً فشيئاً. لذلك لم يكن - أو على الأقل تلك العلوم التي لا تلك سوى أسباب تقريبية والتي لا يقوم عليها دليل ولا برهان - أقرب إلى الحقيقة، من ذلك التفكير البسيط الذي يقوم به شخص عادي ذو عقل سليم في بعض ما يمرض له من الأشياء.

هذا وقد بدا لي أيضاً أننا وقد كنا جميعاً أطفالاً، قبل أن نكون رجالاً، وأتانا مكنتنا زمناً طويلاً تحت سلطان أساتذتنا وسيطرة ميولنا، وما ضدان، كلاهما لا يحضنا النصح ولا هديتنا سواء السبيل، فن المستحيل تقريباً أن نكون لأنفسنا أحكاماً نزيهة نابتة، كما كان شأننا لو وسعنا استعمال تفكيرنا منذ ميلادنا دون أن نركن لقيادة سواه<sup>(١)</sup>

### صعوبة الإصلاح العام

نعم، إننا لم نرأبداً من يدمر منازل مدينة ما لجرد الرغبة في تجديدها وتجميل طرقها وشوارعها، ولكننا نرى كثيراً من الناس يهدمون بيوتهم بأيديهم ليميدوا بناها ثانية، وربما وجدوا أنفسهم أحياناً مرغمين على القيام بهذا العمل، حين يشعرون أنهم في خطر، وأن بيوتهم هذه ذات أسس واهية فهي تكاد تنفض على رؤوسهم. وعلى هذا فأنا موقن بأن ليس هناك إنسان واحد يحاول إصلاح دولة ما بقلبها رأساً على عقب، أو بتدميرها وبنائها ثانية؛ كما أتى موقن أن ليس هناك شخص واحد يحاول إصلاح الميكمل الملى أو نظام تدريسه السائد في الماهد كلها

### اسطرار الإصلاح الخاص

أما آرائى وأفكارى التي تسربت إلى نفسى فلا أرى أفضل من نزعها عنى تماماً لأعيد غيرها، أو أعيدها نفسها ثانية، أو أعيد<sup>(١)</sup> وذلك لأن ميولنا ذات صبغة ثانية، ولأن أساتذتنا يحاولون نقل آراء غيرم إلينا أو نقل آرائهم التي اقتنوا بها وبنوها دون غيرها

قسماً منها بمد أن أحكم عقلى فيها، وبهذه الوسيلة أستطيع أن أتجح في حياتي نجاحاً أعظم مما لو بنيت على أسس خاطئة، أو استندت إلى مبادئ تلقنتها أثناء صباى، واعتقدت بها دون أن أحصى حقيقتها. ولقد شعرت أن عملى هذا لا يخلو من صعوبات جمة، إلا أنها صعوبات يمكن تذليلها، وهي لا تماثل تلك الصعوبات التي يجدها المرء في إصلاح أيسر الأمور التي تمس المجتمع: فالأجسام الصنخمة هذه، إذا هدمت فهي صعبة البناء، وإذا هزت فهي صعبة الامساك، وإن سقطها لا يدأن يكون قاسياً

### أثر العادة في الشؤون العامة

هذا، ولو كانت هناك مساوى في بعض شؤون المجتمع، وهي مساوى لا يد من وجودها، يتم عليها ما بين شؤون المجتمع وأموره من تباين وتناقض، فالعادة ولا شك قد لظقت كثيراً من حدتها، وأصلحت الشيء الكثير منها، وجعلتنا نتعاشى منها ما لم يكن في الإمكان تحاشيه بمهارتنا. أضف إلى ذلك أن احتمال هذه الأمور - على ما فيها من مساوى - أيسر من تغييرها. وما مثل ذلك إلا مثل الطرق التي تسير بين منمطقات الجبال، فهي تصبح مع الزمن طرقاً منبسطة ملائمة للسير من كثرة ارتيادها، ويكون أيسر على المرء أن يسلكها من أن يحاول السير في خط مستقيم، متسلقاً التجاد وهاجلاً الوهاد

### غاية ريطرت في رسالته

لذلك لا أستطيع مطلقاً أن أفهم تلك الطائفة من الناس ذات الأمزجة الثائرة، والمقول الحائرة؛ تلك الطائفة التي لا تفنك تفكر في أن تدخل على شؤون المجتمع شيئاً من التقويم والتعديل، وذلك رغماً عن أن ليس لها من اللكافة والجاه ما يؤهلها لذلك. ولو أتى رأيت في رسالتي هذه ما يبعث على انهابي بهذا الضرب من الجنون لكنت جد آسف، ولأحججت عن نشرها، لأن غايته منها لم تمتد مطلقاً ما أريده من إصلاح آرائى الشخصية، لأبني فيها بمد على أسس هي ملك لي كلها. وإذا أخرجت إلى الناس هذا النموذج من عملى، وقد راقى بعض الشيء، فليس معنى ذلك أن أدعوم للضرب على وتيرتى، لا فأنما أخشى اجترأ الكثيرين على ذلك، فإن إرادة النفس على

## القواعد الأربع

إذاً فلم يكن في مقدوري اختيار شخص يدولي في آرائه ما يدعوني إلى إشارتها على آراء سواء ، وبدأ أفتني مرغماً على أن أقود نفسي بنفسى ، ولكنى عزمت على أن أسير متمهلاً كمن يسير وحده في الظلام ، وأن أنظن إلى كل شيء بحيث لو لم أتقدم إلا ببطء احترست على الأقل من الزلل . وقد آيت الباشرة بنزع أية فكرة من الأفكار التي تسربت إلى نفسى عن غير طريق العقل قبل أن قضيت زمناً طويلاً في تهيئة خطة العمل الذى حملت نفسى عليه ، والبحث عن الطريقة النورية التي توصلنى إلى كل ما يستطيعه عقلى

كنت درست في صباى بين فروع الفلسفة شيئاً من المنطق، ودرست بين الرياضيات الجبر والتحليل الهندسى ، وهي ثلاثة علوم أو فنون كان ضرورياً أن أجد فيها شيئاً مما شرعت في البحث عنه ، ولكنى عند فحصها وجدت أن قضايا المنطق ومعظم تعاليمه تستعمل لبيان ما يعرفه الناس لا لتعليمهم ما يجهلون ، أو هي كفن لول<sup>(٦)</sup> تستعمل للتحديث دون ما تفكير فيما يجمله من الأشياء ، وأنها وإن اشتملت على كثير من القواعد الصحيحة القيمة ، فهي جامعة أيضاً لكثير من القواعد الزائدة أو الضارة ، وهذه يصعب فصلها عن تلك كما يصعب إخراج تمثال للالهة ديانا أو الالهة مينيرفا من قطعة من المرصم لم تقطع بمد . أما التحليل الهندسى القديم والجبر المحدث فهما لا يتناولان سوى منويات ليس لها أية فائدة واضحة . فالتحليل الهندسى يقتصر على النظر إلى الأشكال الهندسية ، ولا يجلوها إلا إجهاد الخيال إجهاداً عظيماً . والجبر مستمسك بقواعد وأرقام جطته فتاً غامضاً مهوشاً يشوش العقل بدلا من أن يشديه

كل هذا حدا بي إلى التفكير في وجوب البحث عن قاعدة تضم محاسن قواعد هذه الفنون الثلاثة وتكون بمنجى عن شوائبها؛ إلا أنى رأيت أن كثرة القواعد والقوانين وتعدادها يسببان عادة مساوئها ، بحيث أن الدولة ذات العدد القليل من النظم والقوانين تكون أكثر نظاماً وقوانينها أدق رطية ، ولهذا رأيت

(٦) كاهن فرنسى وضع فاسمائه باسمه يساعد على الاستنتاج الآلى الذى لا يستند إلى أى تفكير

التجرد من جميع ما اكتسبته قديماً من الآراء ، لا يجب أن يكون مثالا يحتذىه كل إنسان . ذلك لأن العالم يشتمل على نوعين من العقول البشرية ، وكلاهما لا يصلح له هذا العمل أو هذا المثال فالنوع الأول هو تلك العقول التي تقدر ذاتها أكثر مما هي حقيقة ، فلا تمالك من أن تتسرع في أحكامها ، ولا تجرد من الصبر ما يكفي لأن تقود تفكيرها بانتظام . ومن هنا ينتج أنها إذا منحت نفسها حرية الشك فيما تلقنته من المبادئ ، وحادت عن الجادة العامة ، ولو مرة واحدة ، لم تمد تستطيع أبداً الاهتداء إلى الطريق التي يجب أخذها للسير في طريق قويم ، فتبقى تائهة طيلة حياتها

والنوع الآخر هو تلك العقول التي لها من التواضع وبعد النظر ما يجعلها على أن ترى ذاتها أقل قدرة على تمييز الخطأ والصواب من بعض عقول أخرى ، فهي ترى إمكان التلمذ على هذه العقول ، وهي ترى واجباً اتباع آرائها دون أن تكلف نفسها عناية البحث عما هو خير منها

أما أنا فلقد كنت ولا شك في عداد تلك الطائفة الأخيرة ، لو لم أتلمذ على أكثر من أستاذ واحد ، ولو لم أطلع على ما بين آراء الفلاسفة من تباين وتناقض ، في كل عصر وزمن ، فلقد لمست منذ أيام الدراسة أن ليس هناك ما يمكن أن يتصوره العقل مما يدعو إلى الدهشة ويجل عن التصديق إلا ويكون قد أثر عن الفلاسفة وعزى إليهم

## العرف والمعرفة الصحيحة

ولست وأنا أجدول وأنتقل أن جميع أولئك الذين تتضارب أخلاقهم وعاداتهم مع أخلاقنا وعاداتنا ليسوا بمرارة ولا همجاً لمجرد هذا التضارب ، بل إن فيهم كثيرين ممن يعقلون مثلما يعقل أو أكثر مما يعقل . ولاحظت كم يكون الشخص الواحد ذوالعقل الواحد إذا نشأ في وسط إنكليزى أو فرنسى مختلفاً عن نفسه ، فيما لو نشأ في وسط صيني أو هندي . بل وجدت أن الرضى الواحد من أزيائنا الذى كان يروتنا منذ عشر سنين ، والذى ربما راقنا بعد عشر سنين أيضاً ، قد يبدو لنا الآن غريباً حزيناً . وهكذا يتدخل العرف وتتدخل المادة لاقتناعنا أيضاً أن ليس هناك معرفة أكيدة صحيحة

لهروب والتاريخ

## مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للاستاذ محمد سعيد العريان

- ٣٧ -

## مقالاته للرسالة (٨)

هل "هلال الحرم"، وتبقيات الرسالة لاصدار (المدد الممتاز) في ذكرى الهجرة، فكثبت إلى الرافعي فيمن كتبت من أسرة الرسالة، تطلب إليه أن يهيئ موضوعاً مناسباً لذكرى الهجرة، وضربت له أجلاً. واستبق الرافعي اليقاع فاعد قصة «البيامتان» وبثت بها إلى الرسالة قبل موعد العدد الممتاز بأكثر من أسبوع. وحسبت الرسالة أنه بثت إليها بمقاله الأسبوعي المتأخر، وأنه ما يزال يدب موضوعه للعدد الممتاز، فنشرت قصة البيامتين قبل موعدها، وكتبت إليه تستعجزه المقال الثاني. وكان الرافعي متعب الأعصاب، يشكو وجعاً في أضراسه يتقل رأسه، وقد غاظه أن الرسالة فوتت عليه الفرصة فسبقت إلى نشر القصة التي أعدها للعدد الممتاز قبل موعدها وتركته في حيرته، ولم يجد في نفسه خفة إلى العمل، فذهب إلى أوراقه القديمة يقتش بينها عن موضوع خليق بالنشر في هذه المناسبة، فوقع على مقالة «حقيقة السلم»، وكانت كتبها قبل ذلك بسنتين إجابة لمعوية جمعية الكشاف المسلم لشام، ونشرها بالأهرام في ذكرى المولد النبوي لسنة ١٣٥٢ هـ. فبثت بها إلى الرسالة لتنتشر في العدد الممتاز لسنة ١٣٥٤ هـ.

يتحدث الرافعي في قصة البيامتين عن الفتح الإسلامي، وأخلاق العرب، وتاريخ مصر الفرعونية الرومانية، وفتنة القبط بسجايا العرب ومزايها الإسلام؛ وفيها إلى ذلك حديث عجيب عن الحب والمرأة في قصة خيالية اقتتلها الرافعي ليبلغ بها مافي نفسه من مفااتي الحب؛ ثم جعل في خاتمتها «نشيداً للبيامة»

أن أكتفي بالقواعد الأربع الآتية على أن أوطد النية والمزم على ألا أخرج عنها في حياتي أبداً

## ١ - طريقة الموضوع

القاعدة الأولى هي: ألا أنظر إلى أي شيء بعين الحقيقة إلا بعد أن أدرك أنه كذلك. ومعنى هذا أني أتلافى التسرع والتنبؤ، ولا أتبنى من الآراء إلا ما تجلي لعقلي بوضوح وسرعة يحولان دون الشك فيه

## ٢ - طريقة التحليل

والقاعدة الثانية هي: تجزئة كل مشكلة من المشاكل التي أقوم بدراستها إلى أكبر عدد من الأجزاء يمكن ويجب أن تنقسم إليه، وذلك لتتمكن من حلها على أصلح وجه

## ٣ - طريقة التدرج

والقاعدة الثالثة هي: تسيير تفكيري بانتظام، فأبدأ بأبسط الأمور، وأسهلها فهماً وأصعد تدريجياً لمعرفة أكثرها تعقيداً مع اقتراض وجود النظام أيضاً بين الأمور التي لا يتعلق بعضها ببعض

## ٤ - طريقة العودة والاستقصاء

أما القاعدة الرابعة والأخيرة فهي: القيام بإحصاءات نامية، في كل لحظة، والقيام بإعدادات عامة، لأننا كد من أني لم أهمل شيئاً

أمر محمد عيتاني

عضو هيئة جبهة المفاصد في معهد التربية

مصطفى صادق الرافعي

كيف عشتي في مصر عشتي في القاهرة  
لعلك ستعرفين الرافعي مصطفى  
نشره في ما إذا أرسلت لهذا  
الإعداد في مصر سبورت إلى  
جوانب يورين في مصر